

## تفسيرُ بديعِ الزَّمانِ سعيدِ النُّورسي

إن الهدف الأساسي من مؤلفات بديع الزمان سعيد النورسي الذي يُعتبر من أهم مفكري القرن العشرين هو إحياء وتفهم عصره آيات القرآن الكريم . قراءته لخبر إحدى الصحف عندما كان في قصر في وان جعله يرسم أفق غايته . إذ إن كلمات وزير المستعمرات البريطاني في مجلس العموم قوله " ما دام هذا القرآن بأيدي المسلمين فلن نستطيع أن نحكم سيطرتنا عليهم؛ ينبغي أن نتزعه من أيديهم، أو نصرّفهم عنه". أشعلت لهيباً في أعماقه وأوقدت النية في روحه دافعة إياه نحو غايته معقّباً بعدها قائلاً: " لأبرهننّ للعالم ولأظهرنّ له أنّ القرآن شمسٌ معنويّةٌ لا يخبو سناها ولا يُطفأ نورها " . فسّر في مؤلفاته نحو ٦٢٠ آية مشيراً إلى الآلاف من الآيات معنأً. حيث كان بحثه متمحوراً حول مواضيع رئيسية للقرآن الكريم، كان قد حددها كـ " الحشر " و " التوحيد " و " النبوة " و " العدالة " . وقد فسر كلاً من سورة الفاتحة وصولاً إلى الآية ٣٣ في سورة البقرة في كتاب كتبه بالعربية و المسمى بإشارات الإعجاز، معتمداً فيه على منهج يغلب عليه إظهار الجانب الإعجازي . أما في باقي مؤلفاته فقد اعتمد أسلوب أخذ موضوع ما، مبتدأً بذكر آية، معقبا عليها بشرح مستنير بآيات أخرى يُتبعها.

من أجل أن نفهم منهج سعيد النورسي علينا أولاً أن نشير إلى تحليله لتاريخ التفسير حيث قال: " التفسير نوعان : الأول: التفاسير المعروفة التي تبين وتوضح وتثبت معاني عبارات القرآن الكريم وجمله وكلماته . القسم الثاني من التفسير: هو إيضاح وبيان وإثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم إثباتاً مُدعماً بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة . ولهذا القسم أهمية كبيرة جداً. أما التفاسير المعروفة المتدولة فإنها تتناول هذا النوع الأخير من التفسير تناولاً مجملأً أحياناً . إلا أن رسائل النور اتخذت هذا القسم أساساً لها مباشرة . في تفسير معنوي للقرآن الكريم بحيث تلزم أعتى الفلاسفة وتسكتهم."

وسعيد النورسي بمؤلفاته ركّز على الخاصية التي تناولتها باقي التفاسير إجمالاً والتي هي: " إيضاح وبيان وإثبات الحقائق الإيمانية للقرآن الكريم إثباتاً مدعماً بالحجج الرصينة والبراهين الواضحة. " وذلك لأن أهم قضية بالنسبة له هي الوصول إلى الإيمان الحقيقي . ولهذا السبب يجب تفسير آيات القرآن الكريم بما يتناسب مع فهم وإدراك العصر .

" إنّ الأساسَ الإيمانية كانت رصينةً متينةً في العصور السابقة، وكان الانقياد تاماً كاملاً، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو لم يكن لديهم دليل .

أما في الوقت الحاضر فقد مدّت الضلالة باسم العلم يدها إلى أسس الإيمان وأركانها، فوهب لي الحكيم الرحيم، الذي يهب لكل صاحب داءٍ دواءه المناسب، وأنعم عليّ سبحانه شعلّةً من "ضرب الأمثال" التي هي من أسطح معجزات القرآن وأوضحها، رحمةً منه جل وعلا لعجزي وضعفي وفقرتي واضطراري، لأنير بها كتاباتي التي تخصص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد والمنة:

فبمنظار "ضرب الأمثال" قد أظهرت الحقائق البعيدة جداً أنها قريبة جداً. وبوحدة الموضوع في "ضرب الأمثال" قد جُمعت أكثر المسائل تشتتاً وتفرّقاً. وبسّلم "ضرب الأمثال" قد توصلت إلى أسمى الحقائق وأعلىها بسهولة ويُسر. ومن نافذة "ضرب الأمثال" قد حصل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من الشهود.

فاضطر الخيال إلى الاستسلام وأرغم الوهم والعقل على الرضوخ، بل النفس والهوى. كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح. حاصل الكلام: إنه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضى فكري، بل هي من لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلأأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيه إلا الطلب والسؤال منه تعالى،

مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلا التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف. فالداء مني والدواء من القرآن الكريم . ( المكتوبات - ٤٧٧ )

" إن "الكلمات" التي كُتبت لبيان أسرار القرآن هي أنجع دواء لأمراض هذا العصر وأفضل مرهم يمرر على جروحه، وأنفع نور يبدد هجمات خيول الظلام الحالكة على المجتمع الإسلامي، وأصدق مرشد ودليل لأولئك الحيارى الهائمين في وديان الضلالة.

فيا أخي! إنك تعلم جيداً أن الضلالة إن كانت ناجمةً من الجهل فإزالتها يسير وسهل. ولكن إن كانت ناشئة من العلم فإزالتها عسير ومعضل. وقد كان هذا القسم الأخير نادراً فيما مضى من الزمان، وربما لا تجد من الألف إلا واحداً يضل باسم العلم. وإذا ما وُجد ضالون من هذا النوع ربما يسترشد منهم واحداً من الألف. ذلك لأن أمثال هؤلاء يعجبون بأنفسهم، فمع أنهم يجهلون يعتقدون أنهم يعلمون. وإني اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد منح "الكلمات" المعروفة، التي هي لمعات معنوية من إعجاز القرآن الكريم خاصية الدواء الشافي والترياق المضاد لسموم زندقة هذه الضلالة في هذا العصر". ( المكتوبات - ٢٧ )

أسس بديع الزمان منهجه في التفسير على أمرين متلازمين هما الوحي والكون. حيث أوضح الألفاظ المذكورة في القرآن الكريم بتجلياتها المتمثلة في عالم الشهادة يعني الكون. إن تلقى الإنسان للوحي بالنسبة له يكون بواسطة الأنبياء الذين يأتيهم الوحي لفظاً وأخرى يكون من خلال عالم الكون . وقد حاول سعيد النورسي لفت الانتباه إلى الصلة بين القرآن والكون بقوله: " إن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير " معرفاً القرآن بأنه : " الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير .. والترجمان الأبدي لألستها المتنوعة التالية للآيات التكوينية .. ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة .."

بإمكاننا القول بأن منهج تفسير سعيد النورسي هو منهج القرآن الكريم وذلك نراه في الآية الكريمة: " سنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " التي هو نفسه يحول الأنظار إليها .

" إنَّ القرآن الكريم قد يذكر من أفعال الله الدنيوية العجيبة والبدعية كي يُعدّ الأذهان للتصديق ويحضر القلوب للإيمان بأفعاله المعجزة في الآخرة. أو إنه يصوّر الأفعال الإلهية العجيبة التي ستحدث في المستقبل والآخرة بشكل يجعلنا نفتنح ونطمئن إليه بما نشاهده من نظائرها العديدة. فمثلاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَاذًا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾. إلى آخر سورة "يس" .. هنا في قضية الحشر، يثبت القرآن الكريم ويسوق البراهين عليها، بسبع أو ثماني صور مختلفة متنوعة: إنه يقدم النشأة الأولى أولاً، ويعرضها للأنظار قائلاً: إنكم ترون نشأتكم من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى خلق الإنسان، فكيف تتكرون إذن النشأة الأخرى التي هي مثل هذا بل أهون منه؟ ( الكلمات - ٤٨٧ )

بواسطة منهج هذا التفسير المستلهم من القرآن الكريم، جعل كلاً من القرآن والكائنات متلازمين . وبهذا أتيج من جهة للذي يعيش في عالم الشهادة، المنكر في ردّ الآيات الكونية إلى خالقها، رؤية الفاعل والمسبب والمؤثر الحقيقي، ومن جهة أخرى أوصلت المؤمن الموحد القارئ لآيات القرآن من خلال رؤية الحقائق الكونية إلى الإيمان الحقيقي. ولذا فإن الكون يقرأ بالمعنى الحرفي لا بالمعنى الاسمي . يعني في النهاية أصبحت آيات القرآن الكريم لا تخاطب الاسماع فقط بل تجاوزته جاعلة كلاً من القرآن الكريم والكون مفسرين لبعضهما محققة بذلك مراد الله.

لقد أسس بديع الزمان منهج تفسير يخاطب الإنسان من كل نواحيه، شاملاً إياه مادياً ومعنوياً، مبني على حقيقة أن الإنسان لا يتكون من عقل فقط . حيث يقول: "فالكلمات المستقاة من القرآن الكريم ( أي رسائل النور ) إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها، بل أيضاً مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية .. فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة ومعارف ربانية سامية".

"الكلمات: تصديقٌ وليست تصوراً، وإيمانٌ وليست تسليماً، وتحقيقٌ وليست تقليداً، وشهادةٌ وشهودٌ وليست معرفة، وإدعانٌ وليست التزاماً، وحقيقةٌ وليست تصوفاً، وبرهانٌ ضمن الدعوى وليست ادعاءً." " لقد اقتنعتُ أنا بالذات قناعة تامة بعد ألوف التجارب المتكررة لا بعشراتها ومئاتها: أن "الكلمات" والأنوار المفاضة من القرآن الكريم ترشدُ عقلي وتعلمه مثلما تلقنَ قلبي أيضاً بأحوال إيمانية كما تُطعم رُوحِي أذواقاً إيمانية.. وهكذا "

من أجل أن نفهم التجديد الذي قام به سعيد النورسي في علم التفسير، يجب علينا أن نقيمه مع التوجهات التي كانت في عصره. وكما هو معلوم إن أهم جهدٍ قدمه المفكرون في حياتهم الفكرية، هو تكريس طاقاتهم لاستنهاض الشعوب وتخليصهم من بؤرة اليأس والاحباط التي خلفها المستعمر. تبعاً لذلك، في ميدان التفسير انكبت الجهود للبحث عن سبل تعود بالقرآن إلى الحياة من جديد . بناء على الخلفية التاريخية للأحداث يمكننا القول أن التفاسير في وقتنا المعاصر كـ " التفسير العلمي " و " التفسير الاجتماعي الأدبي " و " التفسير الموضوعي " الثلاثة ظهرت على هدفٍ وُصِّل المجتمع بالقرآن الكريم . وفي نفس الحقبة كان هناك ظهور لتوجه يرى أن معاني القرآني تكمن في اختيار ونسق كلمات القرآن الكريم مؤكدين على جانب الإعجاز الأدبي فيه.

إذا أردنا أن نتحدث عن التجديد الذي قام به بديع الزمان في ضوء التوجهات المعاصرة، بإمكاننا القول أن كل التوجهات كان لها وجود في مؤلفاته . مع ذكره هذه التوجهات إلا أنه ذكرها بأسلوب فريد واتساق وشمولية مُحْكَمَةٌ بهدف نقل القرآن الكريم إلى شعاب الحياة للامثال والفهم . فسَّر الآيات الكونية كما فسرها معاصروه، لكنه لم يتقيدَ أبداً بالنظريات العلمية مبتعداً بذلك عن الانتقادات التي وُجِّهت للتفاسير العلمية. تَمَيَّز تفسيره عن التفاسير الاجتماعية والأدبية للمفسرين العقلين بمنهج متوازن يخاطب فيه عقل وقلب الإنسان معاً. اهتمَّ بالإعجاز الأدبي لكنه لم يقتصر على ذكر الفنون الأدبية فقط بل شرحها مبيِّناً فوائدها للمعنى. وأخيراً حقق سعيد النورسي بمنهج تفسيره ما طمح إليه مفسروا عصره وهو إيصال رسالة القرآن للمجتمع . مع استجابته لمطالب عصره واحتياجات مجتمعه إلا أنه لم يتقيدَ أبداً بأي نموذج . وبفضل هذا المنهج الذي يرنو لتكوين الإنسان المعاصر بشكل متوازن، تخلص المسلمون من العقد النفسية أمام الغرب، وحُفظوا من الوقوع في خطر التقليد والذي يُنتج عنه إنجرارٌ وراء الدنيا .